من أوغاريت الى قرطاج

للدكتور محمد فنطر

أسس الفينيقيون قرطاج ما بين أواخر القرن التاسع والنصف الاول من القرن الثامن قبل ميلاد عيسى وادخلوا حضارات الشرق الشامية القديم الى المغرب . فلا شك أن الحضارة التي تسربت الى غربي البحر الابيض المتوسط والى البلاد الغربية على متن السفن الفينيقية حضارة تنتسب في كنهها واشكالها الى المجموعات الحضارية الشامية عامة والى الحضارة الكنعانية الفينيقية بالخصوص . ذلك أمر ثابت لا يرقي اليه الشك على أن ما جاء به الفينيقيون الى بلاد المغرب لم يبق كما كان بل كثيراً ما تأقلم من حيث المضمون ومن حيث الشكل . فلما وجد عناصر حضارية محلية اقليمية ولما كان لا بد أن يحتك بها تمازجت العناصر الحضارية وانصهرت هذه في تلك بل قل تزوجت هذه بتلك فولدت حضارة جديدة لها خصوصيتها تلك التي نلقبها بالحضارة البونيقية فهي حضارة فيها عناصر كنعانية فينيقية ولعلها المسيطرة وفيها عناصر محلية افريقية لوبية مع العلم أن في طيات العناصر الحضارية الفينيقية كما في طيات العناصر الحضارية اللوبية عناصر حضارية اخرى عديدة مختلفة التصقت بها وتمازجت معها عن طريق التماس العرقي والحضاري بحراً وبراً .

فمساهمة مني متواضعة في هذا الملتقى المنقطع النظير أود الاشارة في عجلة الى بعض أوجه القرابة بين العناصر الحضارية التي أينعت في مدينة أوغاريت خلال الألف الثانية قبل الميلاد والعناصر الحضارية التي برزت وتفتقت في البلاد المغربية تحت تأثير الفينيقيين أحفاد الكنعانيين والاوغاريتين عرقاً وحضارة وساكتفي بالاشارة الى عنصرين أولهما يتعلق بالعمارة السكنية والثاني يتصل بشؤون الكفوة .

١ – العمادة السكنية :

من بين النتائج التي أسفرت عنها الحفريات في الاقطار المغربية وفي بعض جزر غربي البحر الابيض المتوسط معطيات ثمينة تتعلق بالبيت البونيقية بالمسكن البونيقي على أن أثمن هذه المعطيات وأوضحها مدفناً بها حفريات مدينة كوكوان بالوطن القبلي (١) ومن مدينة بونيقية يبدو أنها خلت من سكانها أبان الحرب البونيقية الأولى وتكلمت المدينة ان صح التعبير دون أن تمسها الرومسنة فهي من المراجع الاساسية لمعرفة تمصير المدن البونيقية أو التهيئة العمرانية عند البونيقيين . كما لنا في كركوان مجموعة من الاحياء السكنية تعود الى ما بين القرن الرابع ومنتصف القرن الثالث قبل الميلاد .

فعلى اختلاف هذه البيوت من حيث حجمها وعناصرها ومن حيث منزلة أصحابها الاجتماعية والاقتصادية تراها تتخذ في مخططها الاساسي بل قل لها عناصراً أساسية مشتركة فهي كالتالي :

يفتح البيت على الطريق تفصله عنه مصطبة تقيه شر بعض الملوثات كمياه الخنادق وغيرها من أوساخ الشوارع ومن الباب يتوغل الداخل في سقيفة أو معبر طويل منعطف حتى لايستطيع المارة ذوي الفضول اختلاس النظر داخل البيت ومن المعبر يصل الى فناء تحيط بها الغرف ولهذا الفناء وظائف عديدة منها تزويد الغرف نوراً وهواء نقياً وفي الفناء تقوم ربة البيت بانجاز الكثير من أشغالها المنزلية ثم تجد في الفناء البئر أو الصهريج لخزن مياه المطر وتجد فيه كذلك مدرجاً يدفع الى الطابق العلوي اوالى عليةولعلهم كانوا يستخدمونه للصعود الى السطوح لترميمها أو لعرض بعض المواد المنزلية من مؤونة وغيرها لاشعة الشمس حتى لا تكون معرضة للتلوث اذا ما بقيت معروضة في الفناء وقد تدوسها الارجل .

تلك هي أهم العناصر في البيت الفينيقي البونيقي كما وضعتها الحفريات وتوجد نفس هذه العناصر في البيت المشترى منذ أقدم العصور من وادي الرافدين الى مدة ساحل البحر الابيض المتوسط ومنها مدينة أوغاريت .

فعلىقلة الدراسات الخاصة بالعمارة الاوغاريتية يظهر أن البيت في مدينة أوغاريت لم يخرج عن الشكل المعروف في المشرق الشامي القديم ففيه المدخل على الطريق أو الشارع وفيه المعبر المنعطف أو السقيفة وعن طريق المعبر المعطوف او السقيفة يكون الداخل فناء تحيط به الغرف وله نفس الوظائف التي اعترفنا بها لفناء البيت البونيقي و في الفناء البئر وفيه كذلك مدرج يدفع الى السطوح أو الى علية .

لقد أشار بعض الباحثين الى التطابق المتواجد بين المسكن الأوغاريتي والمسكن البونيقي عامة والمسكن الكوكوايتي بالخصوص ومن بينهم تجدر الاشارة الى بيارستاس وعلى هذا الاساس يمكن أن نعترف للبيت القرطاجي أو البونيقي بأصول مشرقية سامية كنعانية ويكون للفينيقيين الفضل في ادخال هذا الشكل الحضاري المعماري الى المغرب والى غربي البحر الابيض المتوسط وكذلك يتجلى خطأ الذين لا يرون الواقع القديم الا من خلال منظار يوناني يلبس الاشكال الحضارية مهما اختلفت اصولها أقمصة يونانية اوأيجية .

من أهل الذكر في الشؤون الأوغاريتية ألتمس المعذرة اذا ما زل قلمي فلساني وتلفظت بخطأ عن جهل ذلك إني بعيد كل البعد عن ملفات هذه المدينة الجليلة وما أعرف عنها أن بعض ما كتبه االآخرون ولو أنني أسعدت بزيارة اطلالها مرتين كلتاهما كانت عاجلة فلم أتمكن من معاينة كل المعطيات و في المرتين أبي المطر إلا ان يباركني منها طلا .

الثابت ولعلي أقول أن الدراسات حول العمارة الاوغاريتية ما زالت نادرة ومهما تكن من أمر فهي لما تخص لدراسة شاملة نظامية على أساس ملفات تجمع كل المعطيات المكتشفة . وثابت كذلك أن مدينة أوغاريت اشتهرت فقهاء اللغات الشامية القديمة برقمها الثمينة أكثر مما

أشهرت الآثارين لقد مضت الرقم الاوغاريتية بعناية فائقة فانكب عليها العلماء من مختلف أقسام المعمورة درساً وتحليلا وتفسيراً بالمقارنة مع ما أوردت آيات التورات فكانت الدراسات التوارتية الواقع الاكبر الى دراسة الرقم الاوغاريتية وهنا تبرز بوضوح عملية الانتقاء لدى مراكز البحث والاوساط العلمية وفي ذلك أكثر من مغزى بالنسبة لاصحاب التراث .

٢ ـ مدينة الأموات ٠

فمن بين النصوص الاوغاريتية استسمحكم التوقف عند نص يتعلق بما يدعى (رفوئيم) ٦ وقد يصح تعبيره بالوفاة بالتاء المربوطة فكلا اللفظتين تبدو منحدرة من مادة (دفي) و(دفو) ولها دلالات مختلفة بعضها يتعلق بالاموات وبعالم الاموات ذلك ما يلتمس في اللفظة الاوغاريتية (رفوئيم) و في اللفظة البونيقية (دفئيم) (٧) الموجودة على نص جنائزي عثر عليه في الجنوب التونسي على ضريح يعرف بضريح الحمروني وللفظة نفس الدلالة في التوراة ولعل للفظة العربية (رفات) بفتح التاء ولعلها فتحت خطأ ـ نفس المدلول في قولك عن الميت «شيع رفاته» .

إنني لا اريد التعمق في هذه القضية اللغوية بل أتركها لأهل الذكر راجياً الاستفادة من أبحاثهم ويبقى مركز اهتمامي في هذا المجال نصاً يسير الى مدينة الاموات (مدينة الرفوئيم) وردت العبارة في النص ٠

ولقد درست هذه الفقرة وترجمت الى الفرنسية من قبل عالمين من كبار المختصين وهما الاستاذ اندري كاكو والاستاذ موريس شنيس . ويعلق هذان العالمان قائلين (في نطاق هذا الافتراض ترى بعض التفاصيل تبرز بعض الشيء (المدينة التي يغادرها الرفوئيم) يمكن اعتبارها تسمية للمكان الذي يقيم فيه الاموات) (٨)

هذا وقد كان تعرض الاستاذ اندري كاكو لهذه القضية منذ سنة ١٩٦٠ في دراسة نشرتها مجلة سوريا .

فيبدو أنه كان في معتقد الكنعانيين عامة والاوغاريتيين بالخصوص عقيدة تتعلق بشؤون الاخوة مضمونها ان الاموات يتعمقون في مدينة خاصة بهم مدينة الاموات ولكن كيف كان الكنعانيون وسكان اوغاريت بالذات يتصورون تلك المدينة ؟ ليس في الرقم ما قد يفيد بما فيه الكفاية للاجابة عن هذا السؤال .

ليس من الطريف والمثير كذلك أن نجد في تونس وثيقة تصور مدينة الاموات تعود الى القرن الرابع قبل الميلاد .

الوثيقة :

تتمثل هذه الوثيقة في الواح مرسومة بطلاء أحمر تزخرف جوانب قبر يوجد بالوطن القبلي: على مقربة من مدينة كوكوان ولقد تم الكشف عنه قبل الحرب العالمية الثانية (١٠) أما تلك الالواح فهي كالتالي من اليمين الى اليسار وانطلاقاً من داخل الغرفة الجنائزية مع النظر الى المدخل :

آ ـ ضريح يتقدمه مذبح موقد وعلى مقربة من الضريح طائر وكأنه يتهيأ لولوج الضريح .

ب — ضريح يتقدمه مذبح موقد : فهي نفس اللوحة تعاد مع اختفاء الطائر .

ج — مدينة حصينة وعلى مقربة منها طائر وكأنه يتهيأ لولوجها .

ونجد على الجدار المقابل للمدخل مشكاة ومحراب رسمت داخله علامة تانيت .

تلك أهم العناصر الزخرفية التي يتحلى بها هذا القبر البونيقي الطريف أما مضمونها فلاريب أنه جنائزي يتعلق بعالم الاموات وبشؤون الاخوة وفي اعتقادي أنها تصور المراحل التي يمر بها الميت حينما يخلو جسده من الروح تغادره مزفوفة نحو مدينة الاموات مروراً بالضريح وبعد ان يقوم الاحياء بواجبهم ازاء الراحل بتقديم القرابين مع احترام الطقوس الجنائزية .

فالملاحظ ان العناصر الاساسية التي تساهم في تشكيل الالواح الثلاثة في ضريح — مذبح — طائر مدينة .

آ — الضريح يسير الى الاجهاز على الميت ودفنه وتمثل الصورة وثيقة ثمينة تساعد المؤرخ على معرفة بعض أشكال العمارة الجنائزية .

ب — المذبح يجسد تقديم القرابين لروح الفقيد وصورته تساعد المؤرخ على معرفة أشكال المذابح المتداولة عند البوليقيين .

ج — الطائر ولعله ديك يمثل الروح وكثيراً ما تتقمص الروح صورة الطائر ذلك معروف لدى حضارات مختلفة لاسيما عند الشعوب الشامية ومنهم العرب والصدى او الهامة شاهد على ذلك .

د — بقيت المدينة ذات الشكل المقوس : أعتقد شخصياً أنها تمثل مدينة الاموات ومدينة الارواح تلك التي تغادر الاجساد في شكل طائر وهي المدينة التي أشارت اليها نصوص أوغاريت (١١) .

فاستناداً الى هذه المعطيات الموضوعية المختلفة نلاحظ أن الذين أسسوا قرطاج وكانوا مذنبين كنعان أتوا الى ربوعنا على سفن مثقلة بضاعة وحضارة فبقدر ما تستفيد البونيقية من الدراسات الاوغاريتية بقدر ما تستفيد هذه من الاخرى مع العلم أن الروابط متينة بين مختلف الحضارات السامية وكم حضارتنا العربية الاسلامية جديرة بالاستفادة مما يدركه فقهاء الحضارات السامية الاخرى .

إني أعتقد بضرورة توجيه عنايتنا نحن العرب الى تلك الحضارات القديمة ولا شك ان هذه الندوة حول الدراسات الاوغاريتية خطوة كبرى على هذا الصعيد وتعبيراً عن ربط الصلة بالاحوال وعن رغبة ملحة في تسخير رصيدنا الحضاري القديم لبناء حاضرنا وتصور مستقبلنا. على أن الواقع العربي ما زال يتسم بزهد العرب في تراثهم القديم ولا سيما في الاصول فكم من عربي يحسن قراءة الكتابات المسمارية والاستفادة منها مباشرة دون وسيط أجنبي يكشف العطاء في بلادنا العربية عن آلاف الرقم والنصوص المختلفة اللغة والمحتوى ولكننا لا نسيطر عليها علمياً واذا اراد أحدنا الكتابة حولها والتنويه بها كان لا بد له من الرجوع الى عبقريات ضحت بالنفيس حباً للمعرفة : التعاون مع كامل أقطار المعمورة أمر مرغوب فيه نؤمن به ونعمل على توسيع

رقعته . الامة تبقى متخلفة اذا كانت ثقافتها تصدر خاماً ثم تستوردها معلبة قصد الاستهلاك المحلي تلك قضية خطيرة لا بد لعلماء العالم العربي أن يقفوا منها موقف الحزم من ذلك وضع مخططات في الامكان انجازها وتتمثل في تكوين الخبراء القادرين على استيعاب كل القضايا التي تفرضها علينا ضرورة عنايتنا بتراثنا على اختلاف أزمنته واشكاله . للتخلف مظاهر عديدة ولعل من أبشعها انسلاخ الامة عن تراثها و تركه ليد أخرى تستأثر به لفحصه والاستفادة منه وليس لامة أن تعيد النظر في كتابة تاريخها مالم يكن أبناؤها يسطرون على ينابيع المعرفة .

الحواشي :

١ – محمد فنطر : كوكوان مدينة بونيقية بالوطن القبلي – مجلة الفكر السنة ٩ والعدد /٨/ ماي . ١٩٦٤ ٣٦ = ٤٣

٢ – لم يقع العثور حتى الان على صهاريج لخزن مياه المطر في مدينة كوكوان حيث يتمتع كل بين بماء بئر حفر على الفناء ودعمت جوانب البئر بالحجارة . أما عن الصهاريج في المدن البونيقية الاخرى انظر .

M. Fantar, Le problème de l'eau potable dans le monde phénicien et panique Les citernes, cis caierrs de Tunisie T. XXII (1975) pp. 9 - 17.

(3) André Parrot, Sumer, Paris 1960, p. 262.

(4) Syrie XVI (1935) p. 142 et suiv. Voir aussi J. Margueron, Résultats des campagnes de fouilles 1975 - 1976 en CRAI 1877, p. 303 et suiv. et surtout à partir de la p. 306.

(5) P. Centas, Man. Archéol. Panique, t.LC (1976) p. 113.

(6) A. Caquot et M. Szncer, Texte Ougaritique t. I Mythes et légendes, Paris 1974, p. 467 et 473.

(7) Ch. Clermont-Ganneau, Etudes d archéologie Orientale, t. 2, p. 156 et siuv.

توجد لفظة (دفئيم)من نقيشتين فينيقيتين انظر KAI, No. 13 et 14.

(8) A. Caquotet M. Sznycer, op. cit., p. 467 et 473.

(9) A. Caquot, Les Réphaïm ougartiques, in Syria XXXVIII (1960), p. 85.

(10) P. Cintas et E. G. Gobert, les tombes du Jebel Melezza en Revue Tunisienne 1939 p. 190 et suiv.

١١ – كنت تناولت دراسة هذه الصور سنة ١٩٧٠ انظر :

(11) Mh. Fatar, Erchalologie Phenicienne, punt que Tun. 1970, p. 36 et suiv. Pl. XXIV - XVI